بسم الله الرحمن الرحيم

المقالح تجربة عربية إبداعية نادرة

بقلم د . أحمد مقبل محمد المنصوري
الأستاذ المشارك في قسم اللغة العربية –
كلية اللغات –جامعة صنعاء– اليمن

ملخص البحث :

تسعى هذه السطور المتواضعة إلى تسليط الأضواء على واحدٍ من أبرز المبدعين في البيئة اليمنية، هو الشاعر الناقد الأكاديمي أ.د عبد العزيز المقالح ، وتقوم بالإطلالة على مجمل جهوده الإبداعية النقدية خاصة ؛وإن يكن رائداً في الشعر التفعيلي ، وهو – بلا منازع – أحد عمالقته الكبار ،ناهيك عن تمكنه من أشكال القصيدة المختلفة ،فإن الاهتمام هنا سيقف عند حدود جهوده النقدية ؛ بوصف النقد يؤدي –منذ أن كان –دورا مهما في حماية العربية حينما آثر دوما أن يرافق العملية الإبداعية في جانبيها :الشعري والنثري ؛ ينبه على الاعوجاج فيها ، ويرصد الانحراف ، ويضع الأسس التي تحافظ في المجمل على أسس أهم جانبين من جوانب العربية في المجال الإبداعي ؛أي :الشعر والنثر الفني ،ولكونه أيضاً– أي المقالح – لم يدع قضية من القضايا إلا وكان له جهود مميزة فيها ، ومؤلفاته في هذا المجال واسعة وغنية بطروحاتها التي لاتخطئها العين. زد على ذلك أن منطلقاته النقدية الأولى والمبكرة كانت ذات أثرٍ مهم ،وكان على هذه الدراسة أن تقف أمامها مستلهمة إيحاءاتها المبشرة بالجديد ،ومدى تأثيرها فيما لحقها بعد ذلك من إبداع سواء أكان من إنتاجه هو أم من إنتاج الجيل اللاحق المستلهم لروح تلك الرؤى!! فجاءت هذه الدراسة في محورين :الأول تناول تجربة المقالح وجهوده الإبداعية النقدية بشكل عام .والثاني وقف أمام ماطرحه من رؤى نقدية مهمة رافقت تقديمه الأول لديوانه الأول على نحوٍ خاص ؛ بوصف تلك المقدمة تعد دستوراً نقدياً مهماً رائداً ، وهذه أول دراسة تسلط الضوء على مقدمة مهمة لم يلتفت إليها أحد من قبل على الرغم من أهمية ما اشتملت عليه من رؤى !!.

وتوصلت الدراسة أخيراً إلى أننا بإزاء تجربة عربية نادرة أثرت العربية بإبداعها النقدي، وهي تنضوي تحت شعارٍ كبير يمكن أن يوصف الناقد الاكاديمي المقالح – من خلال تلك الجهود الإبداعية – أنه واحدٌ من حماة العربية ومحبيها ،وهذا هو مبرر الوقوف أمام جهود هذه الشخصية هنا !!!

توطئة:

منذ السبعينيات وما تلاها من عقود حتى أيامنا هذه يمكن للدارس أن يجد في اليمن تربة خصبة تفتقت فيها ملامح لاتجاهات نقدية متنوعة ؛ منها ماهو سياقي (تتبع النصوص الأدبية من حيث حيثياتها التاريخية والاجتماعية والنفسية والايدلوجية...)ومنها ماهو نصي(تتبع النصوص الأدبية من حيث مكوناتها اللغوية والتصويرية والايقاعية بعيدا عما يمور خارجها من عوالم ؛كالبنيوية والاسلوبية مثلا)بل إن معطيات الحداثة وما بعدها وما رافق ذلك من ظهور نظريات متنوعة كالتلقي وعلم النص والخطاب وكذا التناصية ومن ثم النقد الثقافي كل ذلك يجد صداه في اليمن ونجد أقلام النقد في اليمن وهي متنوعة وكثيرة ونذكر منها – على سبيل التمثيل لا الحصر– من النقاد الأكاديميين خاصة : عبد العزيز المقالح–أحمد الهمداني–محمد النهاري – رياض القرشي – عبدالواسع الحميري– عبدالله البار–أحمدالزمر–سعيدالجريري– عبدالرحمن العمراني–آمنة يوسف–عبدالقادر باعيسى–عبدالمطلب جبر–فضل مكوع–أحمد المنصوري– عبدالله طاهر–عبدالله صبار– حيدر غيلان–عبدالكريم قحطان–مسعود عمشوش–فضل القعود– زيد قاسم–طاهر الجلوب–عبدالسلام الكبسي –خديجة المغنج–محمد الزهيري–محمد العامري–خالد الغزالي–عبده يحي–محمد علي يحي–عبدالله علي قاسم–علي الزبيدي– عبدالرحمن الصعفاني–ابراهيم أبو طالب–أحمد الشميري–عبدالقوي العفيري–أحمد القديمي– عادل القباطي–عباس بافرج–أحمد عبيدون ....إلخ نجد هؤلاء وغيرهم يسهمون بنتاجاتهم النقدية المتنوعة في تأشير ملامح النقد الأدبي الحديث في اليمن تنظيرا وتطبيقا وبشتى اتجاهاته وتياراته ومناهجه.

ولأن للريادة النقدية من جهة وماتبعها من ثراء نقدي ثر إجلالا وتقديراً فإنه من المناسب جدا أن نقف أمام إمام النقاد في اليمن وفاتح باب حداثتهم النقدية د عبد العزيز المقالح ومن خلال محورين :

الأول :رؤية عامة لجهود المقالح النقدية منذ بدأ الكتابة النقدية وحتى الآن.

الثاني:وقفة متأنية أمام مقدمته النقدية الأولى التي كتبها مقدمة لديوانه الشعري الأول مجموعا (بيروت 1977م)بوصفها دستورا نقديا مهما سطره بدءا وتنبأ بها وبمنطلقاتها مستقبلا.

أ

د. عبد العزيز المقالح تجربة نقدية نادرة

إن الكتابة النقدية عن ناقدٍ كبير بحجم الشاعر والناقد والأكاديمي د. عبد العزيز المقالح تتطلب قدراً من الدقة ، وتتطلب قدراً من التركيز لا سيما إذا كنا نعلم أن العطاء النقدي للمقالح قد قطع حقبة زمنية طويلة تصل حدّ الأربعين عاماً أو تزيد وماتزال !! ولم يعرف خلالها قلمه النقدي التوقف أو الانقطاع ! و ما من قضية تستجد في النقد الحديث أو المعاصر أو تثير جدلاً سواء في وطنه المحلي اليمن ، أو وطنه العربي الكبير إلاّ و له في الحديث عنها ومناقشة أصحابها نصيب كبير ،زد على ذلك أن المقالح ليس فقط رائد التحديث الشعري وفاتح باب الحداثة الشعرية في اليمن ولكنه ، أيضاً رائد التحديث النقدي وفاتح باب الحداثة النقدية في اليمن ؛ فهو من المبدعين القلائل الذين يجمعون في الوقت ذاته بين موهبتين : موهبة الشعر وموهبة النقد ، ومن العجيب أنه يسير فيهما معاً : الشعر والنقد بخطى متوازنة وباقتدار فريد لكأن ذات المقالح المبدعة تتبادل المواقع فمرة تبرز في الشعر وأخرى في النقد وبالقدر نفسه من التألق والتوازن ، وكما هو عظيم في شعره هو أيضاً عظيم في نقده ، ولقد يُفاجَأ الدارس حين يطلع على سلسلة دواوينه الشعرية لأنه سيجد خلفها سلسلة أخرى تضم أعماله النقدية ، واعتقد أن الإلمام بموهبتين والإيفاء بمتطلباتهما في وقت واحد أمر صعب ونادر ، ولا يتأتى إلا لمن رزق قلباً وعقلاً كبيرين وواسعين يتسعان لآفاق الشاعرية ، ومديات النقد وذلكم هو قلب المقالح وعقله !!

لن أستطيع هنا – بل ذلك محال – أن أمضي مع الموهبتين معاً : الشعر والنقد فذلك أمر يطول بل هو عسير وشديد الصعوبة ! ولكنني سأكتفي بالمضي مع ملامح سريعة ونبذ مختصرة من سيرته النقدية ، وأحسب أيضاً أن الحديث عن تجربة المقالح النقدية هو أيضاً عسير وليس بمقدور دارس ما أيا كان موقعه أن يلم بمجمل آرائه النقدية ليس لكثرتها وحسب ، ولكن أيضاً لتشتتها هنا وهناك وفي أكثر من زاوية ؛ ذلك أن المقالح لا يكتفي بأن ينشر آراءه النقدية في كتب مختصة بالنقد وقضاياه ، وإنما ينشرها أيضاً في مقالات صحفية يومية وأسبوعية محلية وخارجية وفي مجلات محكمة محلية وخارجية وغير محكمة، ثم

هو أيضاً كثيراً ما يطرح آراء نقدية مهمة في المقدمات التي يكتبها لدواوين الشباب والأصدقاء أو لمؤلفاتهم أو قصصهم ومسرحياتهم ورواياتهم وهي كثيرة ومتنوعة ومتعددة ، كما ينشرها أيضاً في لقاءاته الأسبوعية في مجلسه الأدبي في منزله حيث يلتقى أسبوعياً بأبرز النقاد والعرب واليمنيين وكذا المثقفين يعالجون قضايا كثيرة في الأدب شعره ونثره ونقده ويطرحون كثيراً من الآراء .

والجانب الآخر أن المادة النقدية عند المقالح موزعة بين الجهد التنظيري والجهد التطبيقي ، وموزعة أيضاً بين أدب الأطفال والكبار، وبين الأدب العامي والفصيح ، وبين القصيدة اليمنية المحلية والقصيدة العربية عامة لدى مبدعيها من الشعراء الكبار والمبتدئين، وبين الأدب القديم والحديث، وبين مختلف الأجناس الأدبية : الشعر والقصة والقصة القصيرة والرواية والمسرح ، وهذا يكشف لنا مرة أخرى مدى العجز عن الإلمام بالمعطى النقدي الواسع والثري للمقالح من لدن باحث أكاديمي يسخر جهده لهذه الجهود، ناهيك عن سطور بحث متواضعة ترغب تعطي نبذة مكتملة تضايقها السطور كما تضايقها متطلبات السرعة والاجتزاء قدر المستطاع !

لقد بدأ المقالح رحلته النقدية بالتنظير المستند إلى التطبيق في دارسة هي فريدة من نوعها خصصها لـ (الشعر المعاصر في اليمن الأبعاد الموضوعية والفنية) ليؤسس بهذا الكتاب دستوراً نقدياً مهماً للحركة الشعرية المعاصرة في موطنه اليمن برمتها ، ولقد أصبح الملاذ والمرجع لكل دارس أكاديمي أو غير أكاديمي يتناول بالدرس الشعر اليمني المعاصر أو قضية من قضاياه، وهو الكتاب الذي نال به درجة أكاديمية (الماجستير) ثم تناول في درجته للدكتواره دراسة نقدية مهمة تناولت بالتنظير والتطبيق أيضاً (شعر العامية في اليمن) وهو بهذا يكون قد آمن منذ بداية رحلته النقدية وحتى الآن أن جماليات الشعر العامي لا تقل سحراً و إمتاعا عن الأدب الفصيح بل إنه يصرح وفي أكثر من موضع بمثل قوله : (وأشهد أنني انفعلت كثيرا لنماذج كثيرة من شعرنا الشعبي في اليمن ولم انفعل إلا قليلاً جداً مع نماذج قليلة من شعرنا الفصيح (د.المقالح ، شعر العامية في اليمن ، ص 101).

والحق —وهذا استطراد بسيط — أن المتتبع للشعر الحميني في اليمن المغنى وغير المغنى ليشعر شعور اليقين أن ما فيه من الرقة والعذوبة وصدق المعاناة وجماليات التصوير والموسيقى ما يجعله يفوق الفصحاء بأشواط لا شوط واحد في الشاعرية و الايفاء بمتطلباتها دونما تكلف أو تصنع !!.

بهاتين الدارستين يكون المقالح قد وضع الحجر الأساس لتوجهه النقدي بإفراده هاتين الدارستين النقديتين الأولى للفصيح ،والأخرى للعامي وبرؤية تشي بالتوازن والمصداقية، فالأدب أدب سواء كتب بلغة فصيحة أو عامية وكان لهذه البداية أثرها فيما سيأتي من اهتمامات نقدية للمقالح فيما بعد .

لقد توالت الدراسات النقدية عند المقالح ومازالت تتوالى حتى هذه اللحظة وبإمكاننا هنا أن نقف فقط أمام الكتب النقدية المؤلفة بل أشهرها منذ السبعينيات وحتى الآن ، وليس بمقدورنا- هنا في الأقل- تتبع أبحاثه ومقالاته ولقاءاته ومقدماته؛ فذلك أمر يطول بل عسير جداً في مثل بحث كهذا!

من تلك الكتب بعد الكتابين السابقين : الشعر المعاصر في اليمن الأبعاد الموضوعية والفنية لحركة الشعرية المعاصر في اليمن ، وشعر العامية في اليمن نرصد (مع ملحوظة أن الرصد لا علاقة له بالزمن) الآتي :-

- قراءة في أدب اليمن المعاصر .
- يوميات يمانية في الأدب والفن .
- قراءات في الأدب والفن .
- الشعر بين الرؤيا والتشكيل .
- أصوات من الزمن الجديد (دراسات في الأدب العربي العاصر)
- من البيت إلى القصيدة : دارسة في الشعر اليمن الجديد .
- ثرثرات في شتاء الأدب العربي .
- الزبيري ضمير اليمن الوطني والثقافي .
- شعراء من اليمن .
- عمالقة عند مطلع القرن .

- البدايات الجنوبية (قراءة في كتابات الشعراء اليمنيين الشابة)
- أوليات النقد الأدبي في اليمن .
- أزمة القصيدة العربية- مشروع تساؤل .
- من أغوار الخفاء إلى مشارف التجلى .
- صدمة الحجارة (دارسة في القصيد الانتفاضية) .
- أوليات المسرح في اليمن .
- علي أحمد باكثير رائد التحديث في الشعر العربي المعاصر .
- دارسات في الرواية والقصة القصيرة في اليمن .
- ثلاثيات نقدية .
- الوجه الضائع (دارسات عن الأدب والطفل العربي) .
- تلاقي الأطراف (قراءة أولى في نماذج من أدب المغرب الكبير : المغرب ، الجزائر، تونس)
- زيد الموشكي شاعراً وشهيداً .....الخ.

إن نظرة سريعة إلى هذه الكتب التي أنتجها المقالح – والرصد لها بالطبع ليس وافياً ، فهناك كتب أخرى غير هذه – لتكشف بجلاء حقيقة ما بدأناه في بحثنا هذا عن عطاء نقدي ثر ومتنوع وواسع ، سطّره ومازال يسطّره المقالح ؛ فمن حيث الزمن سنجد هذه الكتب النقدية قد شملت الشعراء القدماء (كوضاح اليمن مثلاً) وشملت المحدثين كعمالقة القرن الماضي ، وشملت المعاصرين كصلاح عبد الصبور ، ونزار ، وباكثير ، وادونيس ، والماغوط ، ونجيب محفوظ ، و البردوني وسواهم كثير .

ومن حيث المكان : نجدها شملت شعراء اليمن وتجاربهم وشعراء الوطن العربي عموماً كمصر والعراق وسوريا والجزائر والمغرب وتونس وفلسطين .....إلخ وتكتمل الخريطة مع عرضه الدائم في الملحق الثقافي الأسبوعي في صحيفة الثورة اليمنية لكثير من مواهب الوطن العربي الكبير وشعرائه الشباب .

ومن حيث الأجناس الأدبية: نجدها تتناول الشعر وهو أهمها والمسرح والرواية والقصة والقصةالقصيرة .

ومن حيث الأشكال الشعرية: نجدها تتناول القصيدة البيتية و الجديدة والآجد(النثر). واهتمت أيضاً بالأدبين العامي والفصيح ، وأفردت الاهتمام بأدب الأطفال كما اهتمت بأدب الشباب وأدب الكبار .

ولم يقف اهتمامه النقدي عند حدود التنظير أو التطبيق وإنما شملهما معاً ؛فمرةً ينظّر لقضايا النقد ومشكلاته العويصة، ويقف عند المثير منها للجدل ويضع رأيه المنطقي الشجاع وبكل اقتناع وإذا مضينا مع مجمل القضايا فإننا سنجده تلمس بريشته النقدية الواعية أبرز القضايا الشائكة منها مثلا :

قضية التعصب للشعرالقديم أو للحديث: أوللعمودي أو الجديد وقد رأى فيها – منهياً الخلاف بين الفريقين – أن العبرة في الشعر هي في الجودة الفنية ، وبالمضامين المتقدمة لا بالشكل فما كان جيداً فهو جيد سواء كان قديماً أو حديثاً مكتوباً بهذا الشكل أوذاك... (ينظر: دالمقالح، ثرثرات في شتاء الأدب العربي ، ص 20)

ثم هو في مجمل كتبه النقدية لم يجد غضاضة في نقد الشعر العمودي والارتياح لجمالياته ، ومواطن السحر فيه وبالكيفية التي ارتاح فيها لنماذج من الشعر الجديد أو الأجد وهي حقيقة تكشفها كتبه وأبحاثه ومقالاته .

وهو رأي متوازن منطقي ينم عن أدارك واع بأسرار الشاعرية التي يمكن لها أن تتلبس الشكل الذي تريد دون ربطها أو قصرها بشكل واحد.

وفي حديثه عن **قضية الأدب بين المتعة والفائدة** يرى بروح الناقد المتوازن أن الشعر العظيم يحوي وراء جمالياته وفنه الهدف العظيم مشيراً إلى الجمع بين المتعة والفائدة معاً . وليس هناك في نظره ما يسمى بالفن للفن (ينظر: دالمقالح ، قراءة في أدب اليمن المعاصر، ص 134) فالشعر للحياة ومن أجلها وهو توازن بين شكل و مضمون لا ينبغي أن يطغى جانب على آخر وإلا اختل الفن .

وفي حديثه عن **قضية الغموض والوضوح** في الأدب يسلك أيضاً المنطق الأسلم المتوازن فهو مع الشعر الذي يحمل غموضاً شفافاً يجعل المتلقي حين يفك شفراته يشعر بلذة الفن

العميقة ، وليس مع الشعر الذي يصل حد الإبهام والتلغيز ، ثم هو أيضاً ليس مع الشعر التقريري الواضح بل إن الإبهام هو الذي أفرز معضلة الفجوة بين المتلقين والنص الأدبي (ينظر: د.المقالح ، قراءة في أدب اليمن ص 64)

ويوفق أيضاً بين **قضية التراث والمعاصرة** والنظرة إليهما ، وله في هذا السياق مقالة شهيرة أصبحت–لأهميتها– من المقررات الدراسية في جامعاتنا وفيها يضحك وبقهقة عالية على أولئك الذين يتنكرون للتراث وهم الذين برزوا من رحمه مؤكداً أن المعاصرة وليدة التراث واتماماً لها وليست منقطعة عنها بحال من الأحوال !.

ويقف أمام **قصيدة النثر** مسمياً إياها بالقصيدة الأجد ، وإن يكن قد أبدى تحفظه إزاءها فذلك ليس رفضاً لها بقدر ما هو إيمان منه بأن شروطها (أصعب من أن يستجيب لها شاعر يكتب بالنثر شعرا حقيقيا إلا إذا كان يمتلك طاقة شعرية مستقلة تجعله يستغني عن كل شكل وقاعدة بما سوف يوفره من خصائص شعرية ، وعناصر تعبيرية) (د.المقالح ، قراءة في أدب اليمن،ص: 22-23-33-63)

ونفرق هنا بين الموقف النقدي و الموقف الشعري ؛ فالمقالح متحفظ على الكتابة بهذا النوع من الشعر للإيمان بصعوبة الإيفاء بشروطه ، ولكنه مع ذلك وقف ويقف أمام المحاولات العربية واليمنية لكتابتها ، وينقدها كما ينقد القصيدة الجديدة أو العمودية، ويطرب كثيرا لبعضٍ من أنموذجاتها ويرفض بعضها الآخر ..

كما أنه لا يكاد يترك قضية من القضايا إلا ويفسح لها مجالا في كتبه ومقالاته ولا يتسع المجال للمضي معها كاملة من مثل : المبدع والحرية ؛حيث يزهر الإبداع في مناخات الحرية ويتلاشى ويضمحل مع القيود (ينظر : دالمقالح، تلاقي الأطراف ، ص 31 ، ود. المقالح ،أزمة القصيدة العربية-مشروع تساؤل، ص 198) والأدب والحياة فالأدب من أجل الحياة مع المحافظة على جمالياته وبتوازن كبير،والغموض والتوصيل حيث يكون الغموض سببا في القطيعة ودم إيصال التجربة (ينظر: د.المقالح ،قراءة في أدب اليمن ص 64) والقصيدة والعصر ، واللغة والتجدد والتغير ، والتجريب ، ومذاهب الأدب ، والتجديد ،والتشكيل الزماني والمكاني والموسيقي .

وينظّر أيضا للنقد وبداياته في اليمن ، والتحديث الشعري وريادته ، وأوليات المسرح في اليمن وشروطه ، وكذلك القصة والرواية ..الخ

ومرة ثانية يمضي من التنظير إلى التطبيق فيقف وجها لوجه أمام الأعمال الأدبية : الشعر ، القصة ، المسرحية ، الرواية .. الخ محتكما إلى النص نفسه في اختيار الطريق الموصل إليه ، ولا يهمل ما وراء النص ؛ فالمقالح لا يؤمن بكفاية منهج معين في قراءة النص ، ولا يؤمن بأن نفرض على النص منهجا مسبقا، ولذلك تأتي قراءاته النقدية مفيدة من كل ما يمكن أن ينير النص من الداخل ومن الخارج .

و كما أنه يؤمن بأن الشعر ينبغي أن يجمع بين المتعة والفائدة هو أيضا يجعل النقد ذا هدف في تنمية الوعي الإنساني والقومي والوطني ، ويكشف عن القيم وجوانب الأصالة ، لذلك نجد أن القضايا القومية و الوطنية والإنسانية تلمح في مشروعه النقدي فتبدو شخصية الناقد ممتزجة برجل الأخلاق والقيم والسياسة والانتماء .

ومثلما هو باذخ التواضع حضاري التعامل هادئ متوازن في شخصه ، هو كذلك في أطروحاته النقدية التي تسير على النهج نفسه من التوازن والهدوء وعدم الشطح أوالضجيج ، ونقده بالجملة نقد منطقي وواع لا تهويم فيه ولاتعميم ولا طلاسم ، وأسلوبه لا لبس فيه ولاتعقيد أومبالغة .

وأخيرا لابد من التأكيد على أننا أمام جهد نقدي متسع وشامل سطرته أنامل المقالح وخدم بجهوده هذه العربية ، زد على ذلك أننا بإزاء مَعْلَم نقدي مهم تتجلى فيه عظمة التواضع وعظمة الشاعرية وعظمة النقد ، إنه ناقد بلا ضفاف ، وتختفي خلف شخصيته المتواضعة الهادئة شخصية شديدة الحساسية للأشياء وهنا تبرز شخصيته الشاعرة ، وشخصية شديدة الالتقاط وتقدير الأشياء وهنا تبرز الشخصية الناقدة ، ومن النادر أن تلتقي شخصيتان في ذات واحدة كما هي في ذات المقالح.

توطئة:

لقد أصبحت المقدمات التي يكتبها الشعراء بأنفسهم لدواوينهم من ضِمن البيانات النقدية التي نالت اهتمام النُقاد، وقد كان السؤال الذي شغلهم في هذا المجال هو عن كيفية التوافق الحاصل بين ما يبثونه في مقدماتهم ومايبدعونه شعراً في دواوينهم؟

وأذكر أننا –وخلال فصل دراسي كامل – حينما كنا طلبة في مرحلة التمهيدي – ماجستير – في بغداد شغلناه كاملا في البحث عن مقدمات الشعراء الرواد التي صدروا بها دواوينهم أمثال :أحمد شوقي وسعيد عقل ونازك الملائكة.. قاصدين من كل ذلك الوصول إلى الأجابة عن تساؤل مهم هو إلى أي مدى توافقت نظراتهم النقدية المبشرة بالجديد مع إبداعهم الشعري نفسه ، بمعنى هل يتطابق نقدهم مع شعرهم ؟لاسيما أنهم كانوا يمثلون مفاصل مهمة في تاريخ الإبداع الشعري العربي ، والنظر في تنظيراتهم الأولى مهم جدا في رصد التحول الذي بشروا به.

لقد كان يومها الفصل الدراسي ضيقا فلم نستطع خلاله مع استاذنا في بغداد الشاعر الناقد أ.د خالد علي مصطفى أن نقف مع مقدمات المبدعين من الشعراء لاسيما المقدمات التى لها شأن في تأسيس النظرية النقدية المعاصرة ، والصادرة في الوقت نفسه عن رواد لهم مكانتهم في التجديد الشعري المعاصر ، ولهم نظرتهم في استيعاب التجديد تنظيرا وإبداعا، وحين رأى أستاذنا رغبتنا في تتبع هذه المقدمات لاسيما أن كل واحد منا أخذ ديوانا مشهورا مع مقدمته وجاء إلى استاذنا يطلعه على مافيه من مقدمة ذات رؤى جديدة مهمة،استحسن منا حسن الاختيار والرغبة الجامحة في الكتابة فأوصانا بالكتابة عن ذلك بالمستقبل لأن فصلنا لم يكن يتسع لكل ذلك ،ومن ذلك الوقت وفي نفسي الرغبة في الوقوف أمام مقدمة ديوان استاذنا الشاعر د.عبدالعزيز المقالح لما فيها من رؤى تستأهل الوقوف والدراسة ،وهاقد جاء

المستقبل الذي كان استاذنا ينصحنا بالكتابة فيه ! فماذا يجري في هذه المقدمة من رؤى؟ وأين هي هذه المقدمة؟

المقدمة:

المقدمة –موضع الدراسة– هي مقدمة ديوان عبد العزيز المقالح الصادر عن دار العودة بيروت 1986م وهو الديوان ذو الجلادة الحمراء وفيه أكثر من ديوان :لابد من صنعاء _ مأرب يتكلم _ رسالة الى سيف بن ذي يزن_ هوامش يمانية على تغريبة ابن زريق البغدادي – عودةوضاح اليمن . وهي بقلم المقالح نفسة وتبدأ المقدمة بصفحة (7)وتنتهي بصفحة (19) فهي اثنتا عشرة صفحة وقد كتبت في عام 1976م كما هو مدون أخرها. وتعد في نظري وثيقة نقدية مهمة تحمل في سطورها رؤى ذات قيمة لاسيما أنها كتبت في فترة كانت الأصوات الشعرية اليمنية في بداية طريقها ، وهي بعد ذلك تحمل تصور الشاعر المقالح للشعر ولدوره في المجتمع .

الشعر للمجتمع :

لقد وضع الشاعر المقالح لمقدمته عنوانا هو (عن الشعر واليمن) وقد يتوهم القارئ فيظن أن الشاعر سيتحدث عن الشعر مرة وعن وطنه اليمن مرة ثانية ،ولربما فصل بينهما لكن حين التمعن في قراءة المقدمة يجد القارى أن المحتوى يفضي الى حقيقة مهمة آمن بها الشاعر المقالح أنذاك وما زال مؤمنا بها إلى اللحظة ،هي أن الشعر يحمل رسالة اجتماعية ووطنية وأن الشعر وسيلة من وسائل النضال في سبيل تغيير الواقع والدفع به إلى الأمام بل إنك تعجب حين تجد الشاعر يؤمن بأن تغيير القصيدة من شكلها العمودي إلى التفعيلي إنما هو وجه من وجوه الرغبة في تغيير الواقع أو أن الواقع نفسه قاد إلى ذلك وبعلاقة جدلية يستجيب فيها الواحد لمتغيرات الآخر، ولابد أن ننصت لعبارة المقالح في هذا الشأن ،فهو يقول:(لقد بدأ الشعراء في بلادنا يحلمون بتغيير الواقع في اليمن منذ مطالع الأربعينييات،وكان الشعر وسيلتهم إلى تحقيق ذلك الحلم ،ومن خلال رغبتهم في تغيير اليمن امتد الحلم إالى محاولة تغيير القصيدة وقد أصبح الشعر عندنا–نحن أبناءهم وأحفادهم–حلماً بتغيير اليمن،والقصيدة والعالم فهل سننجح؟ ذلك ما نتمناه) (المقدمة ، ص 18،19).

هكذا إذن تبدو العلاقة واضحة بين الشعر واليمن في نظر الشاعر ؛الشعر عنده ذو رسالة اجتماعية عليه أن يسهم في تغيير الواقع وأن يجدده وأن يكون رائده إلى المستقبل وتحقيق الحلم .إن الشعر للمجتمع ومن أجله يبرز منه ويعود إليه يغيره ويقوده إلى التطور ،وينبهه على القصور ويدفع به باتجاه النهوض ،وليس الشعر غناء من أجل الفن للفن ذاته —كما هو رأي أنصار مدرسة الفن للفن–ولايعني هذا أن الذين نذروا شعرهم مخلصة لمجتمعاتهم أن شعرهم يخلو من الفن بل إنهم يجمعون –وهذا حاصل لدى شاعرنا–بين الفن والمنفعة بين الأستمتاع والأستنفاع،وأعتقد أن الجمع بين الشيئين هو معقد الإبداع لا أولئك الذين يتعصبون لجانب ويرفضون الأخر .

نعود إلى النقطة التي توقفت عندها في المقدمة وهي الشعر للمجتمع ،للتغيير،للنهوض ،وأتساءل هل تنطبق هذة المقدمة النظرية على إبداع المقالح الشعري ؟وإلى أي مدى يكون ذلك الانطباق ؟ أعتقد أن من يقرأ شعر المقالح الجديد منه والقديم، العمودي والتفعيلي ، يشعر أنه كلف بحمل هذه الرسالة التي أشار إليها في مقدمته وأنه سخر إبداعه في سبيل مجتمعه، ولا أبالغ إذا قلت إن الشعر عند المقالح يصبح ثورة صارخة في وجه الواقع لكنها ثورة تتلبس بثوب الفن وقشرتة الجميلة ، وإياك وأنت تقرأ المقالح أن تنسجم مع الفن وتنسى الواقع وراءه أو إياك أن تتلمس الواقع متناسيا جمال الفن! إنه وبقدرة فنان مقتدر يجمع الاثنين في آن .إنك تقف مثلا أمام قصيدة (خطاب نوح بعد الطوفان) (تنظر القصيدة في الديوان ص 33) فتعجبك تقنية القناع العجيبة حيث يبدو المقالح بثياب نوح بلعبة الفن الجميلة ،حيث يقول :

قلت لكم والمد لم يزل بعيدا
والبحر لم يزل بعيدا
أن تفتحوا عيونكم على الخطر
ِأن تجمعوا السادة ...والعبيدا
أن تصنعوا من شوقكم ،من حبكم نشيدا
لتصعدوا به إلى القمر
لكنكم لم تسمعوا، تعالت الضحكات

.....

فكان هذا الهول والأحزان

كانت الهزات

لا سفن البحر ولا الفضاء

تنقذكم من قبضة القضاء

فقد طغى الطوفان

وكان ياما كان (الديوان ص 36)

لكنك بعد هذه المتعة الفنية الجميلة تجد نفسك مشدودا إلى واقع آخر ، فيه تتساءل لماذا وقع اختيار الشاعر على نوح ؟ولماذا قوم نوح بالضبط ؟وحينما تحاول الربط بين واقع الشاعر ومجتمعه وواقع نوح وقومه وما يدور في خلد الشاعر في لحظة إبداعه تجد بلا شك أن مثل هذا الاختيار لم يكن مجرد اختيار ولكنه مرهون بآمال وأحلام ينشدها الشاعر في مجتمعة في المقام الأول، وهكذا تجد أن رموز المقالح الدينية منها والتأريخية والأسطورية ابتداءً من أول دواوينه وحتى آخرها كانت تخدم آمالاً اجتماعية عريضة ،في الوقت الذي هي تتلبس بلباس الفن الجميل.بل إنك تجد أن شعر المقالح يتطور على المستوى المضمون من ثورة الشعر _كما هو في دواوينه الأولى –إلى ثورة الروح كما بدا ذلك في أبجدية الروح ، وكلها ثورات تحمل صدى الواقع تنطلق منه وتعود إليه، وعلى مستوى الشكل كذلك ؛فالرغبة في تحديث خطاب شكلي جديد للشعر هو نفسه طموح روحي لتجديد واقعٍ برمته!

واعتقد أن جل شعر المقالح عيون ساهرة تصحو من أجل اليمن وترنو إلى مستقبله،ولا تنظر إلى سواه ، وبهذا نجد أن سطور المقدمة حملت معتقداً طبقه الشاعر في إبداعه إلى حد كبير ..

يقول في المقدمة إيضاحاً لهذة الفكرة (فنحن نعاني من التمزق بين العصور ،ونعيش أزمة مختلفة ونستو عب برؤوس من القرن العشرين ، ونسير بأقدام في العصر الحجري ! ويتصادم طموحنا إلى التجديد مع الشروط الموضوعية للواقع المتخلف ،فنحاول –رغم ذلك _ نتحدى هذه الشروط ،لا بالقفز عليها ، ولا بالتصالح معها ، وإنما باختصار الفجوة الزمنية

بيننا وبين العصر إلى أقل عدد من السنوات وذلك باستغلال كل إمكانيات الكلمة المقروءة والمسموعة ،واستخدام كل الأشكال الحديثة والقديمة وكل اللهجات :الفصحى،والعامية،والوسطى.ولهذا فنحن في تحدٍ مستمر مع اللغة، ومع الزمن ومع التقاليد (المقدمة ص17،18) وأوضح من ذلك قوله (فلتشهد عيون كل الأحياء ،وأرواح كل الموتى ،أننا في اليمن المتخلف المقهور ،سنظل رغم أحزاننا الكبيرة والكثيرة _بل بفضل هذه الأحزان _سنظل نحفر في الظلام ونقرع الأجراس حتى مطلع الفجر) (المقدمة ص 13).

الشعر إذاً وسيلة من وسائل تغيير المجتمع،وفي واقع مثل اليمن فإن الحاجة إلى دور الشعر ليكون كذلك مطلب يصر علية ويؤمن به إيماناً جعله يرى وظيفة الشعر تغيير المجتمع والتعبير عنه، يقول نقلاً عن مقدمة له في ديوان لابد من صنعاء (الشعر كالتصوير كالموسيقى ليس ترفاً ذهنياً ،ولا ثياباً بلاغية يرتديها الحكام والممدوحون بمناسبة وبلا مناسبة ،وإنما هو صوت ضمير الشعب والشاعر،والصورة الداخلية لأعماق الإنسان والفنان معاً) (المقدمة ص 10).

فضمير الشاعر ضمير الشعب والإنسان اليمني ينصهر في الفنان، وهكذا يبدو الشاعر المقالح جزءاً من واقعة وهو جزء فاعل يحرك مواهبه باتجاه اليمن ومن أجل اليمن،وهو يقول مستشهداً بشعره في المقدمة :

وديارِي هي الحلم
من أجلها أسكن الشعر
والشعر يسكنني
يتخلق عبر دمي
تحت جلدي خلايا ،وأنسجة
في النهار الكليل يرافقني في المغاورشمساً
وفي الليل يركض في خيمتي قمراً
(المقدمة ص16)

واليمن التي ينشدها شعره (ليست اليمن التي بصق عليها الأئمة ،وخلعوا رؤوس ابنائها وعقولهم ،وليست اليمن التي شوهها سلاطين ما بعد الثورة وتجار الحروب الأهلية !!ولكنها ذلك اليمن الجميل الجديد الموحد، يمن المحبة والعدل الأجتماعي ،يمن الثورة

والفقراء والطلبة والمهاجرين ،يمن الجنود والضباط الأنقياء .ومن أجل ذلك اليمن الجميل الجديد يكتب جيلنا الشعر، ويحب الورد ويحتفل بمنظر الشروق) (المقدمة ص15)

ولا اعتقد أن وضوحاً أكثر من هذا الوضوح في تفسير دور الشعر ووظيفته لدى المقالح إن لشعر للمجتمع ، والشاعر واقعي في ظل هذه الرؤى النظرية ،وفي ظل ما أبدعه من شعرٍ في دواوينة كافة .

تعريف الشعر وأطوار تجربة الشاعر :

كان من المناسب أن أبدأ المقالة بتعريف المقالح للشعرحيث هو نفسه قد بدأ مقدمته بتعريف الشعر لكن الذي دفعني ــ وهو دفع مشروع ــ إلي الحديث عن الفقرة الأولى (الشعر للمجتمع) هو تفسيري للعنوان الذي ربط بين الشعر واليمن، وكان لا بد تحت وطأة ذلك الربط أن أدخل الفقرة وتفاصيلها دونما تردد!ومن جهة ثانية فإن تعريفه للشعر وأطوار تجربته لا يكادان يخرجان عما وفره لنفسه من حديث عن وظيفة الشعر ،أي أن الفقرتين متصلتان بسببٍ أو بأسباب .

منذ البدء يبدي المقالح حيرته وعجزه عن تعريف الشعر ويرى أن هذه الحيرة لم تشمله فحسب ، وإنما شملت كل من حاول أن يعرف الشعر في القديم أو الحديث يقول (ما الشعر سؤال قديم،جديد، ومحير .يذكرني دائماً بسؤالٍ أقدم منه ،وأكثر أثارة للحيرة ،وهو :ما الحياة ؟ وإذا كان الواقعيون ــمن فلاسفة العصر ــقد آثروا أن يعيشوا الحياة بدلاً من أن يبددوا أيامها القصيرة في التعليل والتفسير فإن على الناس ــوالشعراء منهم ــأن يعيشوا الشعر ،أن يقرأوه ،ويكتبوه بدلاً من البحث عن ماهيته ومنابعه) (المقدمة ص7،8)

ويتعجب من أنه يعرف الشعر يوماً فقال رداً على سؤال وجَههُ إليه الشاعر البردوني – رحمة الله –بعد تردد (إن الشعر رؤى لعالم جديد ،ومحاولة للنفاذ خلال الحلم ،مما هو كائن ،إلى ما ينبغي أن يكون ليس في عالم الواقع المادي فحسب بل في عالم الحلم نفسه ،أي في العالم الشعري حيث نحلم بلغةٍ جديدةٍ غير مسكونة على حد تعبير أدونيس) (المقدمة ص 8)

يقول متعجباً من هذا التعريف (فإلى أي مدى استطعت أن أقنع صديقي الشاعر بما قلت ؟ وهل كل ما قلته تعريفاً حقاً للشعر ؟... لا أظن فالتعريفات ،ــالجامعة المانعة منها

_كما يقولون _يمكن أن تصدق على المعطيات العقلية لا الوجدانية .والشعر في أحسن أحواله معطى وجداني) (المقدمة ص 9)

ويعترف بعجزه الدائم أمام هذا التعريف قائلاً (وليست هذه أول مرة أعجز فيها عن تعريف الشعر فمنذ بدأنا رحلة الحرف _أنا والشعر _لم أعرف ما هو ؟ ولا من أين يجيء ؟وكلما اتسعت خطواتنا معاً زادت رقعة الغموض بيننا اتساعاً ،وصرت الآن في حضرته أشبه ما أكون بذلك القروي ،القادم من الجبال ،والواقف أمام البحر لأول مرة ،يسائل نفسه في دهشة:ما البحر؟) (المقدمة ص9)

وبالرغم من محاولاته المتكررة في الإجابة عن ما الشعر ؟الا أنها محاولات (تنزلق من التعريف بالشعر نحو التعريف بوظيفة الشعر من الماهية إلى القضية) (المقدمة ص 9)

وفي حديثه عن تعريفه للشعر عبر دواوينه تبدو قضية لا بد من رصدها هنا والتنبيه عليها ؛ذلك أن الناقد المقالح هنا يفسر جانباً من تجربة الشاعر المقالح مع الشعر؛ فهو يؤمن أولاً أن الشعر يتغير مع ظروف الإنسان ويخضع لما يطرأ على الحياة من تطورات وما يدركها من تغيير عبر الزمن (تنظر المقدمة ص10)

ولذلك فقد تلونت تجربة المقالح الشعرية مع تلون الزمن ومعطياته وهذا ما دفعنا قبل قليل لتأكيد أن تفسيره لتجربته تتماهى مع المجتمع ومع معطياتة الجديدة ، والعجيب كما ذكرت أنه يفسر تجربته الشعرية بلسان الناقد الشاعر يقول (أما في الديوان الثالث(رسالة إلى سيف بن ذي يزن)فقد بدا لي وكأنه صوت الحزن النابت في ضلوع البشر فكانت قصائده صدى لذلك الصوت الفائر في الأعماق ،والصلاة اليومية التي نؤديها في بيوتنا فرادى وجماعات 000ومن خلال سيف بن ذي يزن – الرمز والقناع – قدمت في هذا الديوان أطيافاً من حزن جيلنا ،فالحزن كان طفولتنا وصبانا وشبابنا) (المقدمة ص 11)

ويقول (وحين ظهر الديوان الرابع (هوامش يمانية على تغريبه ابن زريق البغدادي) كانت فيه أكثر من قصيدة تؤكد على أن الشعر قد صار المخلص

الوحيد،القادر على صد العدوان الخارجي والداخلي على السواء ،وأن ذلك الرفيق الغامض _حتى وهو في عنفوان عموديته _وسيلة غنائية وخطابية جيدة لطرد أشباح الغربة والخوف :

دمعي على البلد المهدور مهدور
وصوته كالصدى المهجور مهجور
أبكي،أعض جدار الليل منطفئاً
في غربتي تتخطاني الأعاصير
وحين لا الدمع تشفيني صفائحه
ولا تغيب عن العين الدياجير
أعود للكلمات الشعر أسألها
عطفاً،وفي رئتي للحزن تنور

(المقدمة ص 13،14)

ومع ديوان الخامس عودة وضاح إلى اليمن يختلط فيه –كما يقول– صوت الشعر بالحنين إلى اليمن ذلك اليمن الذي يتصوره عالماً آخر عن الواقع الذي أبتلى به. (تنظر المقدمة ص 14)

وهكذا نجد أن تجربة الشاعر صدى لذاته المنصهرة في مجتمعه ،وأعتقد أن من السهل على الدارسين أن يجدوا توافقاً ملموساً بين تطور تجربة الشاعر وتطور حياة مجتمعه المنصهرة في ذاته أو ذاته المنصهرة في مجتمعه ..

لقد كشفت هذه المقدمة عن رؤية المقالح النقدية للشعر ولوظيفة الشعر وكشفت عن تجربته مع الشعر ، وأعتقد كما كشفت جزءاً من هذا الكشف في هذه المقالة الموجزة أن المقالح الناقد يتوافق في معطياته الإبداعية مع المقالح الشاعر ؛ فالذي يدعو إليه في النقد هو ما يبدعه في الشعر مع إختلاف اللغتين لغة النقد،ولغة الشعر .وسر العظمة في موهبة المقالح أنه يكتب نقده بلغة شعره أو يكتب شعره بلغة نقده وبتوافق عجيب لا يقدر عليه الكثير من الشعراء اليوم ونقادهم .

و**الخلاصة** التي تلمح من خلال وقفتنا هذه تتبلور حول الآتي:

أننا بإزاء تجربة عربية نادرة ذات عطاء إبداعي متميز أسهمت به اليمن ضمن العطاءات العربية المماثلة في خدمة الإبداع العربي في شتى مجالاته ،هذه التجربة تمثلت في شخص المبدع اليمني الكبير ذي العطاء المتدفق د.عبدالعزيز المقالح بوصفه أنموذجا نادرا يستأهل الوقوف أمام جهوده المميزة.

أن تجربة د.المقالح يتأتى تميزها من خلال الجمع بين موهبتين في آن واحد :الشعر بشتى أشكاله والنقد بمناحيه ومنطلقاته كافة.

أنه في شعره وفي إبداعه ظل على الدوام ومايزال منتهجا الوسطية والسكينة والهدوء في طرح الأفكار والرؤى النقدية ذات الصبغة اليمنية أو العربية .

أن رؤاه النقدية اتسعت وتتسع لتشمل كل مناحي النقد قديمه وحديثه بروح الناقد المتشبع وبعقلية الاكاديمي الباحث عن الحقيقة المتفحص لها .

إنه بكل جهوده يعد رمزا من الرموز العربية المعاصرة التي تفتخر به العربية لكونه واحدا من رجالها المخلصين والمحبين لها ،وإبداعه شعرا ونثرا ينضوي تحت فكرة حماة العربية في وطننا العربي الكبير !!

ملحق بالمقدمة نفسها بقلم الدكتور: عبد العزيز المقالح

عن الشعر واليمن

ما الشعر؟

سؤال قديم، جديد، ومحير.يذكرني دائما بسؤال أقدم منه ،وأكثر إثارة للحيرة ،وهو:ما الحياة؟وإذا كان الواقعيون —من فلاسفة العصر–قدآثروا أن يعيشوا الحياة بدلا من أن يبددوا أيامها القصيرة في التعليل واللتفسير فإن على الناس —والشعراء منهم–أن يعيشوا الشعر، أن يقرأوه ،ويكتبوه بدلا من البحث عن ماهيته ومنابعه !

وفي مقابلة —نشرت أخيرا في مجلة الجيش بصنعاء–سألني صديقي اللشاعر عبدالله البردوني عن الشعر ماهو؟ (فليس من المعقول أن تشغل الأدمغة بشيء لا جدوى فيه)وقد ترددت كثيرا قبل أن أجيب عن سؤال صديقي الشاعر بقولي :(إن الشعر رؤى لعالم جديد،ومحاولة للنفاذ ،خلال الحلم ،مما هو كائن، إلى ما ينبغي أن يكون ليس في عالم الواقع المادي فحسب بل في عالم اللحلم نفسه، أي في العالم الشعري ،حيث نحلم بلغة جديدة غير مسكونة–على حد تعبير ادونيس–وبينابيع لم تطرق بعد–كما يقول حسن اللوزي–وهذا الأخير–شاعر مبدع من اليمن المجهول) (مجلة الجيش العدد69 ديسمبر 1975م) (فإلى أي مدى استطعت أن أقنع صديقي الشاعر بما قلت؟ وهل كل ما قلته تعريفا حقا للشعر؟..لا أظن فالتعريفات،–والجامعة المانعة منها_كما يقولون–يمكن أن تصدق على المعطيات العقلية لا الوجدانية.والشعر في أحسن أحواله معطى وجداني، وسياحة في الأعصاب !

وليست هذه أول مرة أعجز فيها عن تعريف الشعر فمنذ بدأنا رحلة الحرف —أنا والشعر– لم أعرف ما هو؟ ولامن أين يجيء؟ وكلما اتسعت خطواتنا معا زادت رقعة الغموض بيننا اتساعا، وصرت الآن في حضرته أشبه ما أكون بذلك القروي، القادم من الجبال ،والواقف أمام البحر لأول مرة يسائل نفسه في دهشة:

ما البحر؟

وفي صدر بعض دواويني المتواضعة محاولات مختلفة للإجابة عن السؤال القديم الجديد عن السؤال القديم الجديد. لكن تللك المحاولات سريعا ما كانت تنزلق من التعريف بالشعر نحو

التعريف بوظيفة الشعر،من الماهية إلى القضية! ففي ديوان"لا بد من صنعاء"وهو أول دواويني كتبت"ورقة إلى القاررىء"جاء فيها(الشعر كالتصوير،كالموسيقى،ليس ترفا ذهنيا،ولا ثيابا بلاغية يرتديها الحكام والممدوحون بمناسبة وبلا مناسبة،وإنما هو صوت ضمير الشعب والشاعر،والصورة الداخلية لأعماق الإنسان والفنان معا) (ديوان "لا بد من صنعاء": الدار الحديثة للطباعة واللنشر،تعز 1970 م)وفي ديوان "مأرب يتكلم" وهو الديوان المشترك الذي جمعني بصديق العمر الشاعر عبده عثمان ،ينتقل الحديث عن الشعر إلى الحديث عن مراحل-تطوره باعتباره-أي الشعر-كاللغة وسيللة تعبير،تتغير مع ظروف الإنسان،وتخضع لما يطرأ على الحياة من تطورات،ومايدركها عبر الزمن من تغيير:(فالشعر فن من الفنون الجميلة كالموسيقى والرسم والنحت..الخ والمتابع لماضي وحاضر هذه الفنون-وحتى غير المتابع-يدرك جليا التطور الذي لحق بها على مدى الخمسين عاما الماضية من هذا القرن) (ديوان مأرب يتكلم ،الدار الحديثة للطباعة والنشر،تعز1971م) أما في الديوان الثالث"رسالة إلى سيف بن ذي يزن" فقد بدا لي الشعر وكأنه صوت الحزن النابت في ضلوع البشر،فكانت قصائده صدى لذلك الصوت الغائر في الأعماق، والصلاة اليومية التى نؤديها في بيوتنا فرادى وجماعات، والوجبة التي للا تنقطع ولا تتأخر(ومن خلال سيف بن ذي يزن-الرمزوالقناع-قدمت في هذا الديوان أطيافا من حزن جلينا،فالحزن كان طفولتنا وصبانا وشبابنا،وما يزال.

وفي مقابر،وفي معابد الشعر الحزينة كثيرا ما تساءلت لماذا الحزن؟لماذا كل الشعراء حزانى؟ أتذكرون صاحب القروح الذي بكى واستبكى؟ ومالك بن الريب أتذكرون مرثيته الباكية؟ أتذكرون أحزان المتنبي-الصخرة-التي لاتحركها الكؤوس ولا الأغاريد؟أتذكرون أيضا تعللات أبي العلاء؟

وسوداويات بودلير

وتشرديات رامبو

ويونانيات بايرون؟

ثم..أتذكرون غجريات لوركا؟

وبيروقراطيات مایاكوفسكي؟

وسجنيات ناظم

واندلسيات شوقي

وبكائيات الزبيري

ومنفيات البياتي

وحلاج عبد الصبور

وأشجان مدينة حجازي

أتذكرون؟؟

يقول صلاح عبد الصبور–حياتي في الشعر–ردا عللى مثل سؤالي السابق عن حزن الشعراء:"إن الفنانين والفئران هم أكثر الكائنات استشعارا للخطر ،ولكن الفئران حين تستشعر الخطر تعدو لتلقي بنفسها في البحر،هربا من اللسفينة الغارقة.أما الفنانون فإنهم يظلون يقرعون الأجراس ،ويصرخون بملء فيهم حتى ينقذوا السفينة" وإذا كان الأمر كذلك –وهو فعلا كذلك–فلتشهد عيون كل الأحياء ،وأرواح كل الموتى ،أننا في اليمن المتخلف المقهور،سنظل رغم أحزاننا الكبيرة والكثيرة –بل بفضل هذه الأحزان–سنظل نحفر في الظلام ،ونقرع الأجراس حتى مطلع الفجر)

(ديوان "رسالة إلى سيف بن ذي يزن "دار الهناء بالقاهرة،1972م)

وحين ظهر الديوان الرابع (هوامش يمانية على تغريبة بن زريق البغدادي) كانت فيه أكثرمن قصيدة تؤكد على أن الشعر قد صار المخلص الوحيد ، القادر على صد العدوان الخارجي والداخلي على السواء ،وأن ذلك الرفيق الغامض –حتى في عنفوان عموديته–وسيلة غنائية وخطابية جيدة لطرد أشباح الغربة والخوف:

دمعي –على البلد المهدور–مهدور وصوته–كالصدى المهجور–مهجور

أبكي، أعض جدار الليل منطفئا في غربتي تتخطاني الأعاصير

وحين لا الدمع تشفيني صفائحه ولا تغيب عن العين الدياجير

أعود للكلمات الشعر أسألها عطفا ،وفي رئتي للحزن تنور

تصدني في حنان ثم تمنحني نشيدها ،وهو منظوم ومنثور

اعلو به، اتحدى ليل نكستنا والرعب منتشر ، والهول مسعور

ارتاد عالم حتفي غير مكترث وفي فمي من أبي الأحرار تبشير

(ديوان"هوامش يمانية على تغريبة ابن زريق البغدادي "،دار العودة ،1974م)

وأخيرا يجيء الديوان الخامس "عودة وضاح اليمن "وقد اختلط فيه صوت الشعر بالحنين إلى اليمن، واليمن التي يحن إليها الشعر ليست اليمن التي بصق عليها الأئمة،وخلعوا رؤوس ابنائها وعقولهم ،وليست اليمن التي شوهها سلاطين ما بعد الثورة والفقراء والطلبة

والمهاجرين، يمن الجنود والضباط الأنقياء .ومن أجل ذلك اليمن الجميل الجديد يكتب جيلنا الشعر ،ويحب الورد،ويحتفل بمنظر الشروق:

وديارى هي الحلم
من أجلها أسكن الشعر،
والشعر يسكنني
يتخلق عبر دمي..
تحت جلدي خلايا،وانسجة
في النهار الكليل يرافقني في المغاور شمسا
وفي الليل يركض في خيمتي قمرا
كلما اشتقت للوطن المستباح النجوم،
نشرت خريطته في دمي
فوق جمجمة الشعر
في عظمه
وتحسست جرح القرى والمدائن (ديوان "عودة وضاح اليمن" دار العودة)

والآن،وقد أوشكت المقدمة–بل المقدمات–أن تنتهي،فإن السؤال الذي بدأتها به مايزال قائما:

ماالشعر؟

وقد يكون من الأفضل أن اترك الأجابة عن هذا السؤال للشعر نفسه ، فربما كان في مقدوره . إن كان شعرا . أن يجيب عليه ، وسأكتفي فيما تبقى من سطور بأن أطرح بين يدي القارىء العربي جانبا من محنتنا الشعرية في اليمن :

فنحن . كثر من شعراء أي قطر عربي . نعاني من التمزق بين العصور ، ونعيش أزمة مختلفة ، ونستوعب برؤوس من القرن العشرين ، ونسير بأقدام في العصر الحجري ! ويتصادم طموحنا إلى التجديد مع الشروط الموضوعية للواقع المختلف ، فنحاول . رغم ذلك . أن نتحدى هذه الشروط ، لا بالقفز عليها ، ولا بالتصالح معها ، وانما باختصار الفجوة الزمنية بيننا وبين العصر إلى أقل عدد من السنوات ، وذلك باستغلال كل امكانيات

الكلمة المقروءة والمسموعة ، واستخدام كل الأشكال الحديثة والقديمة ، وكل اللهجات : الفصحى ، والعامية ، والوسطى . ولهذا فنحن في تحد مستمر مع اللغة ، ومع الزمن ، ومع التقاليد ، ومع الرجال الخارجين من بطون الكتب الصفراء ، ومن كل عصور التاريخ . فإذا في اشعارنا قدر من الانفصام بين الجدة المتطرفة , والتقليدية المسرفة ، فذلك راجع إلى هذه الظروف ، وإلى اننا نعبر عصور الخضرمة والأنتقال بسرعة الصواريخ الموجهة أحيانا ، وفي بطء السلحفاة احيانا اخرى ، والحق ان شعبنا . بما ترسب في وجانة من حسن حضاري ، وبما يحتشد في أعماقه من رغبة مشبوبة إلى اللحاق بالعصر . شعبنا هذا يساعدنا على الجري ومواصلة السباق ، ليس في مجال الكلمة فحسب بل في مختلف المجالات السياسية والا جتماعية ، وما يحدث اليوم في شطري بلادنا شاهد عدل على ذلك .

وبعد ..

لقد بدأ الشعراء في بلادنا يحلمون بتغيير الواقع في اليمن منذ مطالع الأربعينات ، وكان الشعر وسيلتهم إلى تحقيق ذلك الحلم ، ومن خلال رغبتهم في تغيير اليمن امتد الحلم إلى محاولة تغيير القصيدة . وقد أصبح الشعر عندنا . نحن أبناءهم وأحفادهم . حلما بتغيير اليمن ، والقصيدة ، والعالم . فهل سننجح ؟ ذلك ما نتمناه .

عبد العزيز المقالح

3 يناير 1976.

(**ملاحظة مهمة وإيضاح**:الملحق السابق هو المقدمة التي كتبها المقالح لديوانه ، وقد نقلتها كما هي بالحرف في بداية ديوانه ،ولقد كان يثبت اسماء دواوينه مكتفيا بذكر اسمها ضمن مراجعه في الهامش ودون إثبات صفحاتها لأنها ستأتي مضمنة في الديوان نفسه فيما بعد،ولذلك نقلت المقدمة كما هي ودون الصفحات التي لم يدونها هو حين ذكره لاسماء دواوينه وكما هي ،ولم يكن محتاجا لذكر صفحتها لانها آتية بعدُ)

مراجع الدراسة والملحق :

1-أزمة القصيدة العربية ،مشروع تساؤل،د.عبدالعزيز المقالح،دار العودة –بيروت ،ط :1 ،1985م

2- تلاقي الأطراف،د.عبدالعزيز المقالح ،دار التنوير –بيروت ط:1 ،1987م

3-ثرثرات في شتاء الأدب العربي،د.عبد العزيز المقالح،دار العودة-بيروت،ط:1 ،1983م.

4- ديوان عبد العزيز المقالح ،دار العودة - بيروت 1986 .

5- ديوان رسالة إلى سيف بن ذي يزن دار الهناء بالقاهرة 1972 .

6- ديوان عودة وضاح اليمن ،دار العودة -بيروت.

7- ديوان لا بد من صنعاء ،الدار الحديثة للطباعة والنشر ، تعز 1970م .

8- ديوان مأرب يتكلم ،الدار الحديثة للطباعة والنشر ، تعز 71 19م

9- ديوان هوامش يمانية على تغريبة ابن زريق البغدادي ،دار العودة-بيروت، 1974م.

10- شعر العامية في اليمن دراسة تاريخية ونقدية ،د.عبدالعزيز المقالح،دار العودة-بيروت،1978م.

11- قراءة في أدب اليمن المعاصر،د.عبدالعزيز المقالح،دار العودة-بيروت.

12- مجلة الجيش (اليمن – صنعاء)،العدد 69 ، ديسمبر 1975 .